ملامح العنف ضد المرأة في المجتمع الجزائري التّقليدي

أ: مليكة الحاج يوسف
علم الاجتماع بجامعة الجلفة

ملخص البحث

يتناول هذا المقال دراسة حول ملامح العنف ضد المرأة، وسنحاول أن نوضح ذلك من خلال عرضنا لمكانتها في جميع المستويات، وكيف ينظر إليها الآخر وخاصة المجتمع الجزائري التقليدي.. لكي نعرف الوضع الحقيقي لحياتها.

***Le résumé**:*

Le présent article envisage les profits de la violence contre la femme, et on vas essayé d'expliquer sa position dans touts les domaines, et comment elle est vu par l'autrui et spécialement dans la société algérienne traditionnelle,pour mieux connaitre la realité de sa vie.

تظهر ملامح العنف ضدّ المرأة في المجتمع الجزائري التّقليدي من خلال مكانتها ووضعها المحصور بين نقيضين نتيجة للازدواجية في المواقف النّابعة من ازدواجية الثّقافة ومن ازدواجية الأحوال الاجتماعية الّتي عاشتها البشرية في مظهرها العامّ إذ يتّضح لنا أنّ المرأة في هذا المجتمع محترمة ومحتقرة في آن واحد، لأنّ المجتمع العربي والجزائري تحديدا عان كبتا وجمودا وعاش حصارا فكريّا واجتماعيّا في مظاهر الحياة والّتي أثّرت بدورها على مكانة ووضع المرأة..و عليه فالإشكالية

المطروحة في هذا المقام هل تعيش المرأة حاليا في المجتمع العربي والمجتمع الجزائري على وجه التحديد وضعا محترما مشرفا بعيد كل البعد عن ظواهر العنف وأشكاله المتعددة؟ وما هي مكانة المرأة في المجتمع الجزائري التقليدي على وجه العموم؟

مفهوم العنف الاسري :

يصعب تحديد مفهوم العنف تحديدا دقيقا، غير انه يمكن القول ان العنف هو الموجه لواحد او أكثر من أفراد الأسرة ذاتها أو احد منها ،و بعبارة أخرى فإن العنف هو شكل من أشكال السلوك العدواني الذي تترتب عنه علاقات قوة غير متكافئة داخل المحيط الأسري .

أما العنف في معناه الاجتماعي فيرمي إلى: " الإكراه أو استخدام الضغط أو القوة استخداما غير مشروع أو مخالف للقانون من شأنه التأثير على إرادة فرد ما او مجموعة من الأفراد (عبد الرحمن العيسوي، 1997)

كما يعرف العنف من الناحية القانونية إلى : استخدام القوة المادية و الإرغام البدني أو الإكراه البدني واستعمال القوة بغير حق، ويشير اللفظ إلى كل ما هو شديد وغير عادي " (عبد الرحمن العيسوي، 1997).

وقد عرفه حسين توفيق إبراهيم للعنف في كتابه : ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية بالقول أن العنف هو : ظاهرة مركبة لها جوانب اقتصادية واجتماعية وكذلك نفسية، وهو ظاهرة عامة تعرفها كل المجتمعات البشرية بدرجات متفاوتة . (حسين توفيق إبراهيم، 1990).

مكانة المرأة في المجتمع الجزائري التّقليدي :

قبل أن نتطرّق إلى مكانة المرأة في المجتمع الجزائري التّقليدي تجدر الإشارة السّريعة إلى وضعيتها في المجتمع أو المنطقة المغربية قبل الإسلام، ففي هذه الفترة وضعيتها على ما يبدو لم تكن واضحة المعالم إلّا في بعض الاستنتاجات المبنية على الرّسوم والآثار والمرويات المخلّفة عن شعوب المنطقة، ففي العهد الرّوماني مثلا كانت مبالغة في الزّينة والتجمّل واستعمال الحليّ البربرية، وقد كان البربر منغلقين على أنفسهم والأسرة البربرية هي أسرة أبوية تخضع لسلطة الجماعة وقوانينها العرفية ويمارس الأب في هذا النّظام سلطته على أفراد أسرته وعلى النّساء خصوصا، وإن لم تكن صورتها واضحة المعالم فذلك يرجع لتأثير المدّ الأجنبي على المنطقة المغربية وهناك شذرات تشير إلى تفوّقها أحيانا بحيث بدت في مركز قوّة وسلطة كالمشاركة السّياسية أو السّلطوية ونستدلّ بذلك في شخصيّة الكاهنة البربرية تلك الشّخصية القويّة الّتي كان لها كلمة مسموعة بين قومها ومأثّرة ويشار إلى أنّ أوّل ثورات طلب الاستقلال ارتبطت باسم امرأة ... [1]، الّتي وجّهت أهل المنطقة إلى خوض غمار الحرب ضدّ الفاتحين العرب للمنطقة..الخ.

وكانت المرأة في هذا المجتمع وخاصّة في بيتها صاحبة الرّأي والمشورة والسّلطة والعصمة. هذا الرّأي الأوّل وهناك رأي آخر يقول أنّ مكانتها كانت متدنّية، كُلّفت بالعمل الشاقّ والزّراعة والعمل المنزلي...الخ، وحُرمت من الإرث، وكانت السّلطة الأبوية هي السّائدة والمتحكّمة في مصيرها – هذا حال المرأة تقريبا في جلّ الحضارات السّابقة وقد تواصلت فيما بعد- فحالها لم يكن بأحسن حال في هذا المجتمع، وعموما فالمرأة كانت في وضعية التّابع لسيّدها عليها المحافظة على القيم والمعايير والتّقاليد والموروث الثّقافي بشقّيه المادّي (اللّباس

والحلـــيّ وصـــناعة الفخّـــار...)، والمعنـــوي (الأســـاطير والأمثـــال والحكم والأغاني....)[2].

بينمـا عـن حالهـا بقـدوم الإسـلام فقـد رافـق أو وازى وضـع المـرأة المسـلمة آنـذاك كمـا سـاير التغـيّرات الـتّي شـاهدتها بعـد الـدّعوة، وفي عهـد الـدّويلات هنـاك مـن شـاركن في الحيـاة الفكريـة والسياسـيّة والدينيّـة وعرفـت وضـعيتها أيضـا التّراجـع بتراجـع الدّولـة الإسـلامية وانحطاطهـا وامـتلأت قصـورهم بـالجواري والقيـان مـن مختلـف الأعـراق والأنسـاب والأصـقاع، كمـا انتشـرت الخرافـات والبـدع واشـتدّ الحجـر علـى المـرأة، فـزادت تخلّفـا وتـدنّت مكانتهـا علـى مسـتوى البنـاء الاجتمـاعي ونلمـس هـذا الوضـع أكثـر في العهـد التّركـي بفقـدها للكثـير مـن الحقـوق (كالتّعليم، الإرث....)[3] .

فبتـوالي الانقسـامات بـين شـرق وغـرب، طوائـف، مماليـك،... الخ كانـت المنطقـة مهيّـأة للحمايـة العثمانيـة الـتّي زادت سياسـتها وعاداتهـا وبنيتهـا تقسـيما للمنطقـة، ذلـك أنّ المجتمـع الجزائـري والمغـربي عُـرف بعـادات وبـنى تختلـف في الكثـير مـن الجوانـب عـن طبـاع وبنيـة الأتـراك الأمـر الـذّي أدّى بـالمرأة إلى الانـزواء والانعـزال أكثـر، وكـان المجتمـع الجزائـري بـذلك خاضـعا للطبقيّـة " يحكمـه نظـام إقطـاعي تـديره طبقـة إقطاعيـة تركيـة مترفـة، إلى جانـب فئـة مـن الأعيـان الجزائـريين وكـان هـؤلاء الـذّين يمثّلـون السّـلطة الحاكمـة في الـبلاد يعيشـون في تـرف وبـذخ ويـزدادون غـنى يومـا بعـد يـوم فيمـا كانـت غالبيـة المجتمـع وهـم الفلاّحـين يعانون من الجوع والفقر المدقع..."[4].

وباشـتداد أو اسـتبداد هـذا النظـام انحـدرت مكانـة المـرأة أكثـر ونشـير أن مكانتهـا اختلفـت بتبـاين المراحـل الزّمنيـة الـتّي مـرّ بهـا التّـاريخ

العثماني وباختلاف فئات المجتمع وطبقاته وبتنوّع المناطق والأعراف التّي سيطر عليها العثمانيون.

فقد تمتّعت النّساء العثمانيات بمكانة أحسن من مكانة الفئات الأخرى، وكان للعثمانيين فسحة للترف والجنس، وملأت قصورهم بالحريم والجواري وازداد عدد النّساء عبر المظاهر التّي عرفتها الدّولة خاصّة الحروب والغزوات المتوالية ضدّ الخصوم والصّراعات الدّاخلية التّي كان الباب العالي يتولّى توجيهها من بعيد وهو منهمك بملذّاته...تزدحم قصوره بالحريم من زوجات وسراري وصنوف الأرقاء. وقد بلغت أعدادهنّ أرقاما قيّاسية في تلك العهود مع مظاهر التّرف التّي عاشها العثمانيّون، وكانت المرأة إحدى الأشكال الدّاعية للترفيه الذّي سعوا إلى تحصيله بأيّ ثمن

ونتيجة لتردّي أوضاع المجتمع، تردّت وضعية المرأة بعد انحراف الدّايات والسّلاطين عن سياسة البلاد (الإمبراطورية المريضة) والاختصاص في المجون، الخمر النّساء الجواري " ... لقد ساءت الحالة السّياسية إلى حدّ كبير وأقفرت دور العلم والأدب وتردّت الحالة الفكرية والاجتماعيّة وأصبحت البلاد مهيّأة للسّقوط في مرافق الحياة المادّية والعقلية..."[5]. تفشّى الجهل والفقر وزادت الحملات والغزوات الأجنبية (الإسبانية الفرنسية...) ونال المرأة ما نال المجتمع وأكثر (الأمّية، الجهل، الإيمان بالخرافات والبدع، الطّرقية، الدّعارة...) إنّ العبوديّة النّسائية باختلافها رافقت هذا النّظام بشكل ملفت وهو الأمر الذّي عصف بالمجتمعات العربية والجزائر على وجه التّحديد.

رغم كل هذه المظاهر فإنّ المرأة في الرّيف والبادية والمدينة كانت راعية على بيتها وشؤونه، مربّية لأطفالها، قائمة على الكثير من أمورها وانشغالاتها لكن في انزواء نتيجة للظّروف التّي مرّت بها المجتمعات

العربيـــة الإســـلامية، واشـــتدت وطـــأة هـــذه المـــؤثّرات بإيجابياتهـــا وســـلبياتها بتـــداخل ظـــروف وعوامـــل متنوّعـــة ســـاهمت في تشـــكيل المجتمـــع العـــربي والجزائـــري وهـــي التّشـــكيلة الموســـومة بالتّقليديـــة الضّـــاربة في القـــدم (منـــذ المجتمـــع البربـــري...) المتـــداخل مـــع التّـــاريخ الإســـلامي فكيـــف تتجلّـــى مظاهر العنف ضدّ المرأة في المجتمع الجزائري التّقليدي؟

إنّ المجتمـــع التّقليـــدي هـــو ذلـــك المجتمـــع الـــذّي كـــان موجـــودا بمميّزاتـــه وخصائصـــه الـــتّي حـــاول الإســـلام القضـــاء عليهـــا وتعـــديلها وتصـــحيحها، وقـــد ظـــلّ هـــذا المجتمـــع قائمـــا بصـــفتيه التّقليديـــة والأبويـــة وفي بنيتـــه وأنماطـــه وقيّمـــه الـــتّي أعطـــت السّـــلطة المطلقـــة للرّجـــل وفرضـــت علـــى المـــرأة قيـــودا وخضـــوعا مطلقـــا، " إنّ حجـــر الزّاويـــة في النّظـــام الأبـــوي يقـــوم علـــى اســـتعباد المـــرأة... والأبويـــة أوّل مـــا تتمثّـــل في نزعتهـــا السّـــلطوية الشّـــاملة، التّي ترفض النّقد ولا تتقبّل الحوار...[6].

ويُلاحـــظ أنّ هـــذا النّظـــام الأبـــوي التّقليـــدي هـــو مجموعـــة "مكوّنـــة مـــن الأب وأبنـــاءه المتـــزوّجين وزوجـــاتهم وأولادهـــم وأحفـــادهم المتـــزوّجين وزوجـــاتهم وأولادهـــم وكلّهـــم يعيشـــون تحـــت ســـقف واحـــد..."[7]. والمكانـــة الاجتماعيـــة لأفـــراد الأســـرة مبنيـــة علـــى شـــكل هرمـــي فمـــن حيـــث الأهمّيـــة الـــذّكور أوّلا وذلـــك حســـب تـــرتيبهم العمـــري ومركـــزهم الاجتمـــاعي يليـــه الاقتصـــادي، ثمّ النّســـاء المختلفـــات في المكانـــة حســـب مـــوقعهنّ في العائلـــة الأمّ أوّلا أمّ الـــذّكور ثمّ الزّوجـــة فالابنـــة ثم الأدنى فـــالأدنى...الخ، والأب هـــو مـــن يحـــافظ علـــى الإرث ويقـــوم بتبعـــات الـــزّواج واختيـــار الزّوجـــات للأبنـــاء والأزواج للبنـــات وإرث البنـــت يبقـــى في العائلـــة لـــذلك تُـــزوّج مـــن ابـــن العـــمّ وعنـــد وفـــاة الأب تـــؤول السّـــلطة للابـــن الأكـــبر (الـــذّكر)، وتُملـــي العـــادات والتّقاليـــد شـــروطها علـــى المـــرأة أهمّهـــا عـــدم تـــدخّلها في شـــؤون الـــزّوج وعـــدم استشـــارة الـــزّوج لهـــا والتزامهـــا بـــالطّهر والعفـــاف...، فواقـــع

المرأة كما يبدوا في هذا المجتمع، واقع يتقبل كلّ ما يُفرض عليه، حتّى غدى شيئا طبيعيّا بل جزء من أنوثتها المقرّرة "...فهي الأنثى، وما يتبع أنوثتها من متاعب وأعباء لا تُحسب لها، لكونها أمورا حيوية تعتمد عليها الحياة لتستمر وتبلغ غايتها..."[8].

لقد أكّد الكثير من السّوسيولوجيين أنّ واقع المرأة في أيّ مجتمع، يُشكّل معيارا نتعرّف من خلاله على درجة نمو ذلك المجتمع وارتقاءه، وحدود هذا الارتقاء هي ذاتها حدود ارتقاء وتغيير مكانة ووضع المرأة في المجتمع، فحيثما يكون هناك تخلّف وركود وحرمان فإنّ للمرأة نصيب منه، بل ويحاول النّظام الموسوم بالتّقليدي – الأبوي الحفاظ عليه وإعادة إنتاجه في أدبياته وأقواله وذهنيته أو مِخياله بصفة عامة.

المجتمع الجزائري لم يكن معزولا عمّا كان عليه المجتمع العربي الإسلامي وباقي الحضارات الإنسانية والأحداث التّاريخية الّتي شهدتها المنطقة في حركة تبادل وتأثّر وتأثير قبل الفتح الإسلامي ثمّ بعده وكذا الأحداث الّتي عرفتها المنطقة المغاربية وما كان عليه وضعها في تلك الحقب قليل إلاّ ما تعلّق بالحملات الاستعمارية والغزو أمّا عن حياة المرأة الاجتماعية بالذّات فلم توجد دراسات بالمعنى المعمّق الّذي يشرح حالها ووضعها.

وتتجلّى مظاهر هذا المجتمع حسب العديد من الدّراسات في القرون المتأخّرة يعني القرن السّابع عشر والثامن عشر حتّى القرن العشرين، وأهمّ ما يميّز وضع ومكانة المرأة في هذه الفترات – ما بعدها وما قبلها- هو تدنّي مكانتها ومركزها، ويلاحظ في هذا المقام أنّ وضعها لم يكن على نفس الوثيرة فقد كان هناك فرق بين حياة المرأة الوجيهة الأرستقراطية وحياة المرأة العامّة، وهنا لا يمكن الحديث أو تناول أوضاع المرأة الجزائريّة في المجتمع التقليدي بطريقة مشابهة،

فالمرأة في المجتمع التّقليدي الّتي كانت تحيا حياة العامّة نجد منها من كانت تعيش حياة الاحتجاب والانزواء ومن كانت تعمل في الزّراعة والحقول وأيضا في المنتجات والصّناعات التّقليدية، والأغلبية السّاحقة كانت محرومة من التّعليم والمطالبة بالحقوق وغيرها.

وزاد الاستعمار من النّيل منها، بل واللّجوء إلى سلبها وتجريدها من حقوقها لتزداد حالتها سوءا، فقد استطاع الاستعمار أن يسلب الوطن العربي – الإسلامي عامّة والجزائر خاصّة ثرواته المادّية والمعنوية ويطمس حقائقه وتاريخه، فعانى الذلّ والهوان والفقر والأمّية والأمراض، وكلّ هذه الظّروف كانت وبالا على المرأة، بحيث كان لها نصيب منها بالإضافة إلى ما كان سائدا من معايير وقيم متّصلة بالمجتمع التّقليدي (العيب والحرام الحشمة، الحرمان من التعليم، الاختفاء والانزواء، الاختزالات السّلبية الدّونية والتّبخيس، دور محصور في الإنجاب والعناية بالبيت والأطفال دون غيره من الأدوار... فالمرأة واحد من اثنين إمّا أمّ وزوجة مطيعة وَلود تلد الذّكور دون الإناث، قارّة في بيتها ترعى أطفالها...و إمّا جسدا مؤنّثا وأداة إغراء وإغواء أدنى من الرّجل وتحت وصايته وحمايته وتبعيته في المجتمع الجزائري التّقليدي ويلاحظ أنّ مختلف هذه الوضعيات والرُّؤى لا تعمل على تفتّح فكرها ولا تردّ لها اعتبارا كذات واعية وواثقة من نفسها...

وقد كان الإستعمار بالمقابل ينخر في جسد الأمّة كجسم دخيل غريب زاد الطّين بلّة حيث تأزّمت وضعيّة المرأة فشدّد عليها وعزلها اجتماعيا واقتصاديا حتّى وصل الأمر إلى الاعتداء عليها ممّا أدّى بالمجتمع التّقليدي إلى عزلها عن المحيط الخارجي عزلا تامّا فأدّت هذه الظّروف بدورها إلى تجهيلها وتهميشها وتخلّفها بشكل عامّ ورغم

محاولات الاستعمار النّيل من كرامة الفرد الجزائري (المرأة والرّجل معا). كانت الأسرة في المجتمع الجزائري التّقليدي تُعدّ خليّة أساسيّة، خليّة اقتصادية للإنتاج والاستهلاك، خليّة سياسيّة تحت سلطة قائد واحد، ربّ الأسرة وهو الأب أو الجدّ الذّي يتّخذ القرارات، يُسيّر الأمور...يُقسّم العمل..."[9].

إن النّظام الأبوي التّقليدي، نظام مكون من بنية سيكولوجية، اجتماعية وثقافية تاريخية وحضارية تتميّز بالخصوصيّة بالنّسبة للمجتمع الجزائري خاصّة والتّي تقوم على القرابة والنّسب وكبر حجم العائلة وكثرة النّسل والزّواج من الأقارب، وتعدّد الزّوجات فهو يجمع ثقافة تتّسم بالخصوصيّة، إنّها الثّقافة التّقليدية المتميّزة بعناصر ومنها: رموز، أساطير، أحكام مسبقة، محرّمات، وكل ما يصلها بالماضي ويؤثّر في حاضرها بحيث تحافظ على العادات والتّقاليد والمعتقدات الأساسيّة المنشأة والمتلقّاة عن طريق التّربية العائلية والدّينية. فعن طريق هذه العناصر تتحدّد مكانة الرّجل ومكانة المرأة، بوجود مقسّم إلى عالمين واحد للرّجال وآخر للنّساء منفصلان كلّيا، الرّجل كسيّد للمجال في الطّرقات، الأسواق الأماكن العامة الأسفار، مقابل المرأة التّي تقضي جلّ حياتها داخل البيت.ومنه فالمرأة تملك المجال الداخلي (البيت وما يحيط به) والرّجل يملك المجال الخارجي، للرّجل الحرّية المطلقة في اختراق هذا العالم وهذا المجال بينما المرأة مجالها محدّد ومحصور في الدار، لا مجال لها في العالم الخارجي، العالمان منفصلان، ومحدودان جغرافيا وحتّى إن كان الرّجل في المجال الدّاخلي، فله حرّية التصرّف والاحتراف والطّاعة التامّة له يُنفّذها الآخرون خاصّة المرأة والطّاعة تشمل كبير العائلة كالأب القائم على شؤون البيت، إذا أراد أمرا الكلّ يطيع له فالرّجال يتكلّمون بصوت مرتفع، يعطون أو

يصدرون الأوامر الصّارمة بينما النّساء يوشوشن مطيعات مذعنات، فلا مجال للحوار بين الرجل والمرأة ...الرجال يتكلّمون فيما بينهم والنّساء يتكلّمن فيما بينهنّ.

يبدو جليّا أن المرأة في المجتمع الجزائري التّقليدي التزمت بمجموعة من القواعد الصّارمة الّتي إن حادت عنها لاقت الاستنكار والإهانة، وأهمّ هذه القواعد والمعايير، الطّاعة وعدم الحديث في حضرة الرّجال ...الخ. ورغم ذلك فإنّ ملامح العنف ضدّ المرأة في المجتمع الجزائري التّقليدي تُعرف عبر المظاهر الّتي سنستعرضها وهي تتّسم بالخصوصية والتفرّد في الكثير من الجوانب، أيّ كخصوصيّة سوسيوثقافية ومنها :

1)- الإنجاب وتفضيل الذّكورة :

يعدّ مظهر تفضيل الذّكورة من القيم الّتي سادت معظم المجتمعات العربيّة وخاصّة المجتمع الجزائري التّقليدي، فمنذ عهود سابقة ميلاد الذّكر كان مفضّلا وممجّدا، ولادته تثير الفرح والبهجة في الأسرة عكس الأنثى الّتي تثير الهمّ والغمّ، في المجتمع الجزائري الذّكر يُستقبل بالزّغاريد لأنّه يمنح الأمّ قيمة اجتماعية ويسهم في استمرار النّسب " إنجاب الذّكور له دور كبير في تحديد مكانة المرأة داخل العائلة، بحيث أنّ مجدها يكمن في إنجاب الذّكور...[10].

وكلّما كان عددهم كبيرا كلّما عزّزت المرأة مكانتها وبهم تستمرّ العائلة ويُمثلون قوّة عاملة منتجة للعائلة ومصدر حماية، لذلك يُحتفى بهم، بينما الإناث فلا نصيب لهنّ في مثل هذه المكتسبات، لأنّهنّ يمثّلن خيبة أمل الأمّ والعائلة، وتلتصق مسؤوليّة إنجابهنّ بالأمّ وحدها فهذا هو" موقف المجتم والعائلة من المرأة الّتي تلد إناثا فقط، موقف يُصنّفها بنفس مستوى العاقر، كلتاهما تُعتبران جالبتان للشرّ، مسئولتان عن ضياع اسم العائلة..."[11].

وهنا يتمّ التّمييز بين الذّكورة والأنوثة ليتدنّى وضع ومكانة المرأة، وكلّ فرد يكتسب هذا التّمييز عبر عمليّة التّنشئة والتّعامل وغيره.

2)- التّنشئة وطرق المعاملة :

طرق المعاملة والتّنشئة الّتي يتلقّاها الجنسان مختلفة تماما، بحيث أنّ ما يتلقّاه الذّكر في هذا المجتمع غير ما تتلقاه الأنثى " بالنسبة للذّكر فهو يُربّى على تأكيد الذّات والثّقة بالنّفس تُنقل له عدّة رسائل من قبيل " أنت جميل، قويّ، شجاع..."، رسائل إيجابية دائما ومقوية لذاتيته، فيكون بذلك أكثر ثقة بنفسه[12]، بينما الأنثى تُلقّن العكس فهم ينقلون لها رسائل سلبية من قبيل " لا تستطعين فعل هذا ولا ذاك، أنت ضعيفة، هذا ممنوع عليك..." فتكون دائما بحاجة إلى حامي، لن تستطيع اتّخاذ القرارات بنفسها، هي دائما تابعة وكي تُقبل يجب أن تطيع القوانين والقواعد والمعايير الاجتماعية اعتمادا على السّلطة الأبويّة التّقليدية.

3)- الطّاعة العمياء لربّ الأسرة :

ولما كان الأب على رأس العائلة فإن السّلطة تؤول إليه باعتباره السّاهر على حمايتها وتأمين بقائها واستمرارها وتعمل زوجته وأبناءه وزوجاتهم والأحفاد على طاعته والولاء له، إنّ العائلة الجزائرية التّقليدية تقوم على هذا النّوع من المعايير وتُدعّمه الثّقافة والبناء الإجتماعي الّذي يُعلّم أفراده على الخضوع والطّاعة لرب الأسرة، خاصّة المرأة كبنت زوجة، أمّ...إلخ، وهنا يظهر نوع من التّراتب التسلسلي داخل الأسرة الجزائرية أو تراتب هرمي قاعدته النّساء وقمّته الرّجال (ربّ الأسرة، كبيرها...).

ومن مظاهر هذه التّراتبية أيضا أنّ الابن كان لا يقدّم طلباته مباشرة إلى والده، بل أنّه يُبلّغها إلى والدته وهي بدورها ترفعها إلى

الـزّوج، وإذا مـا أراد هـذا الأخـير مـن أحـد أبنـاءه أن ينفّـذ لـه أمـرا أرسـل الابـن الأكـبر ليعطيـه التّعليمـات، أمّـا الجـدّة والجـدّ فكانـا السّـتار الـدّائم والسّـميك الـذّي يتـوارى خلفـه الأبنـاء وعـزّز هـذه التّراتبيـة وجـود حـدود تحفـظ كـلّ فئـة داخـل إطـار مقامهـا فتظهـر بالتّـالي داخـل الأسـرة فئـات مكوّنـة مـن فئـة النّسـاء، الأطفـال، الشّـباب، ثمّ ربّ الأسـرة وكـل فئـة تعـيش حـدودها وللنّسـاء عـالمهن الخـاصّ، لا يشـاركن الرّجـال في الحـديث والآراء وحـتّى الطّعـام...إلخ والمعاملـة بـين الـزّوجين تتّسـم بالمحايـدة والقسـاوة والـتحفّظ، ولـربّ الأسـرة طـرق معاملـة تتّسـم بالهيبـة الزّائـدة وأحيانـا القسـوة، ذلـك أنّ : "...سـلطة ربّ الـدّار تمتـدّ إلى حـقّ الحيـاة والمـوت للنّسـاء والأطفـال في أسـرته، فـإذا كـان عليـه أن يـدافع عـن نسـائه ضـدّ عـدوان الآخـرين، فـإنّهن لا يملكـن حـقّ حمايـة أنفسـهنّ منه..."[13].

4)- أهمّية الزّواج:

يهـتمّ المجتمـع التّقليـدي بـالزّواج خاصّـة تـزويج المـرأة في سـنّ مبكّـر، فـالمرأة دائمـا بحاجـة إلى زوج يحميهـا ويرعاهـا، ويُحقّـق مكانتهـا ويضـفي علـى وجودهـا صـفة الشّـرعية والاعـتراف الاجتمـاعي عكـس العنوسـة الـتّي تحصـرها في مكانـة أدنى، وبعـد الـزّواج يُنتظـر منهـا الإنجـاب والتناسـل، فـالمرأة في إطـار المجتمـع التّقليـدي لا تنتظـر شـيئا مـن الـزّوج لكـن تنتظـر مـن ذلـك أبنـاء فـالزّوج قيمـة غـير ثابتـة يمكـن أن يـذهب أو يطلّقهـا أو يكـرّر الـزّواج ولأهميـة الـزّواج كـان الرجـل يجمـع عـدّة زوجـات في بيت واحد من أجل الخدمة وإنجاب أبناء يخلّدون اسم العائلة.

ومـن مظـاهر المِصـاحِبة للـزّواج أنّ الأبنـاء لم يكـن لهـم الحـقّ في اختيـار زوجـاتهم بـل للأهـل الحرّيـة في الاختيـار والموافقـة أو الـرّفض، كـذلك سـادت عـادة الوعـد بـالزّواج لوالـد الفـتى في سـنّ مبكـرة، لم يكـن

للفتاة والفتى الحرية في اختيار الشّريك ويعلمان بموعد الزواج في اليوم الذّي تحدّده العائلة (رب الأسرة غالبا)، ولم يكن هناك مجال لا للّقاء ولا للتّعارف وفُرضت العزلة والانزواء حفاظا على القيم والتّقاليد الاجتماعية، ويحفظ في هذا المقام حقّ ابن العمّ للزّواج من ابنة عمّه (زواج العمومة) كي يحفظ الإرث والأرض.

5)- حجب وعزل النّساء :

يشمل حجب وعزل النّساء ثلاث أشكال: الحجاب، الاتزار وعدم مخالطة الرّجال وقد أوجد المجتمع مجموعة من التدابير جُلّها يتمحور حول الحجب والعزل والحجر على النّساء، ومنعهن من الخروج من مساكنهن والعيش في عالمهن الخاصّ " فلطالما اعتبرت المرأة كائن مبتور، ناقص، قذر... عار وجب أن يُخفى وراء الجدران ولكن حتّى الاسم نال جزءا من هذه القذارة وهذا العار، فالرّجل الجزائري، عندما يتكلّم عن زوجته لا يستعمل أبدا كلمة امرأتي بل يفضّل كلمة المرأة.

كلّ هذه التدابير والمظاهر تعبّر عن عمليّة العزل والحجب التامّ للمرأة عن الرّجال وشمل الحجب كذلك منعها من التطلّع إلى الخارج عبر الجدران والسّتائر هذا يعني الحجب المكاني، وشمل الحجب أيضا العزل العقلي والذّهني فتفشّى في وسطهنّ الجهل والأمّية والإيمان بالخرافات والشعوذة والسّحر وإدعاء المسّ والجنون وغيره.

ونتيجة لِما مرّ به المجتمع الجزائري، فقد افتقد للكثير من دور العلم إلاّ ما اقتصر على المدارس القرآنية (للذّكور خاصّة)، وكانت جلّ المعارف معتمدة على الخيال والوهم والسّحر، كما كان للأفكار السّائدة عن تجنيب المرأة العلم دور كبير في تجهيلها وأمّيتها ودونيتها، لقد كانت ثقافتها تقوم على الأساطير والحكايات والسيّر

والكرامات (الصوفية) وشيوع الخوارق، والسّحر والشعوذة والتمائم، بحيث كانوا يلجئون للخرافات ويتعلّقون بالأوهام.

لقد كانت المرأة هي الأكثر تعلّقا بهذه الأوهام وتجاوبا مع الخرافات السائدة وتواصلت هذه الوضعية على نفس الوتيرة حتّى القرن الماضي (ق 20) حيث تداخلت عدة عوامل منها الخارجية ومنها الذاتية لتغيير وضع المجتمع، إلاّ أنّ وضع المرأة بقي يتحرّك ببطء شديد وكانت مكانتها أدنى من الذّكر على مستوى الكلمة والخطاب الاجتماعي (العار الغواية...إلخ) والمرأة الوحيدة الّتي كان لها متنفّس في كنف أبنائها الذّكور هي " المرأة العجوز، المسنة في المجتمعات المغاربية، بحيث كانت تتّخذ القرارات بقوّة وبحريّة تامة..."[14].

وما يلاحظ أنّ مختلف الوضعيات الّتي حُصرت في إطارها المرأة لا تعمل على تفتيح فكرها ولا ترد لها اعتبارا كذات واعية واثقة من نفسها ، فكان الاستعمار كجسد دخيل ينخر في كيان المجتمع والأمّة فزاد الوضع تأزّما، وزاد الحجر والتشدّد على المرأة اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا...إلخ، وعلى العموم فإنّ ما عاشه المجتمع الجزائري في تقليديّته ما هو إلا امتداد للسّلطة الاستبدادية والظّروف الّتي عاشها المجتمع العربي الإسلامي في عقود تاريخية ماضية خاصّة الاستبداد العثماني والاستعماري.

وقد أفاضت الأقلام في الكتابة حول هذا المجتمع خاصّة الأقلام الاستعمارية حول خصائصه أو خصوصيته ومظاهره ومميّزاته، بدراسة انقسامية ذات منحى استعماري مُركِّزا على المرأة باعتبارها عماد المجتمع وأساسه، رغم التصوّرات الّتي حصرت في إطارها والّتي تحتاج إلى فهم وتحليل وبحث يمسّ مختلف الجوانب الثّقافية والاجتماعية

والدّينيـــة والأســـطورية وحـــتّى الخطـــاب الأدبي المتمثّـــل في الأدب الشّـــعبي بمختلف أشكاله ومضامينه.

الهوامش والمراجع :

1-عبد الرحمان العيسوي، .1997

2-عبد الرحمان العيسوي،.1997

3-حسين توفيق إبراهيم، .1990

[4]- Mered (Ali), Le réformisme Musulman en Algérie de 1925 à 1960 essai sur l'histoire religieuse et sociale, Paris, Ed puf, 1967, P16.

[5]- Charles André (Julien), L'histoire de l'Algérie du nord, Alger, SNED, 1978.

[6]- أبـــو القاســـم ســـعد الله، تـــاريخ الجزائـــر الثقـــافي، بـــيروت، دار الغـــرب الإســـلامي، ج1، 1998.

[7] - مبـــارك بـــن محمـــد الميلـــي، تـــاريخ الجزائـــر القـــديم والحـــديث، الجزائـــر، مكتبـــة النهضـــة، 2004.

[8] - مـــيرات العيـــد، " الأصـــول التاريخيـــة لنشـــأت المســـرح الجزائـــري، دراســـة في الأشـــكال الثراتية" مجلة إنسانيات، الجزائرالعدد 12، ص11.

[9] - الســـعافين إبـــراهيم، مدرســـة الإحيـــاء والـــتراث، لبنـــان، دار الأنـــدلس، بـــدون ســـنة، ص.29

[10]- شـــرف الـــدين فهيمـــة، أصـــل واحـــد وصـــور كثـــيرة، ثقافـــة العنـــف ضـــد المـــرأة في لبنـــان، بيروت دار الفارابي، ط1، 2002 ص.13

11- Marouf (Chafika), "Etat de la recherche sur le monde feminin et la famille en Algérie et au Maghreb", journée d'études 2-4 juin in ORASC femme, société, Alger, 1987, P15.

[12]- ميمـــون الربيـــع، " واقـــع المـــرأة في المجتمعـــات البشـــرية ووضـــعها في القـــرآن الكـــريم " ،مجلـــة المجلس الإسلامي الأعلى الجزائر، العدد3، 2000 ص 209.

13- Ramzi Abadir (sonis), La femme arabe au Maghreb et au Machrek, Alger, Entreprise nationale du livre, 1986, p 91.

14- lacoste du jardin (Camille), Des méres contre les femmes, p83.

15- Mostaganemi (Ahlem), Algérie, femme et écritures, paris, Editions l'harmattan,1985,p 454.

16- Boudefa (saliha), L'image de la femme dans les discours, P218.

[17] – راغب نبيل، أخطر مشكلات الشباب، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 2003 ص128.